(١)

بين "الفكر" و "الثقافة"(*)

(*) نشرت معدلة بصحيفة الأهرام (؟) - ثم نشرت كاملة بمجلة العربى التى تصدر بالكويت - العدد ٣٦٩ فى أغسطس ١٩٨٩م.

obeikandl.com

بين "الفكر" و "الثقافة"

عادة ما نخلط بين مفهوم "الفكر" ومفهوم "الثقافة" ونستخدمهما كمترادفين؛ فلا نميز بين "الفكر" و "الثقافة"، بين "المفكر" و "المثقف"، فكل مثقف ندعوه مفكرا وكذلك فكل مفكر مثقف، والحق أنه إن جازت الثانية فلا تجوز الأولى.

ولقد شغلنى الأمر فنظرت فى العديد من الموسوعات والمعاجم، ولشد ما كانت دهشتى حيث وجدت أنها لا تقدم تمييزا واضحا بين هذين الاصطلاحين؛ فقد عرفت "دائرة المعارف الحديثة" الثقافة بأنها "لفظ شاع استخدامه حديثا ويقصد به مجموع صفات كالمعرفة والبصيرة والذوق السليم"، وعرفت الرجل المثقف بأنه ذلك الذى "يجمع بين تلك الصفات أو يقترب منها". وقد اعتمدت فى ذلك التعريف على الاشتقاق اللغوى للكلمة حيث إن "الثقافة فى اللغة بمعنى التأدب والذكاء، فنقول ثقفت الحديث أى فهمته بسرعة".

وإذا نظرنا فى ذلك التعريف فسنجد أنه ليس تعريفا؛ فهو لا يكشف عن ماهية معينة أو مدلول ثابت لما نطلق عليه "ثقافة"، بل هو نظر إلى الثقافة من حيث إنها صفة أو صفات تحمل على موضوع معين، وغلب عليها فى التعريف السابق الصبغة الأخلاقية.

أمـــا "الفكـــر" فقد اكتفت الموسوعة بإيراد بعض مشتقات اللفظ ومـــترادفاته كالـــتأمل والتفكير والتفكر ثم قالت "إن التفكير من أبحاث علـم الـــنفس وهـــو عملية عقلية نزوعية تهدف إلى كشف حقيقة كل مشـــكلة مـــن المشـــاكل الـــتى تعترض الإنسان، لهذا كان التفكير من الصـــفات الـــتى ينفرد بها الإنسان، إذ أن التفكير يحتاج إلى استجماع لتجارب الإنسان الماضية وإدراك العلاقات بينها فى ضوء حقيقة ماثلة أمـــام الفرد، فكل عملية تفكير هى فى الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة مـــن ثنايا حقيقة قديمة أو جملة حقائق ومثاله محمد أطول من محمود، وحســـين أطول من محمد إذن حسين ولا شك أطول من محمود. فهذا الاســـتنتاج الأخيـــر هـــو حقيقة اكتشفها العقل بالتفكير وذلك بمقارنة الحقيقـــتين الســـابقتين، وإذا شاهد إنسان البرق وسمع الرعد وقال- إن الســـماء ســـوف تمطر. فإن هذا الاستنتاج وصل إليه من مقارنة هذه المشـــاهدة الحسية بالحقيقة العامة وهى أن البرق والرعد مقدمة لسقوط المطـــر .. فالـــتفكير فى جميـــع صوره ما هو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التى تواجهه".

وهذا أيضا ليس تعريفا للفكر، فقد تطرق المُعرفون إلى تحليل لـــبعض العمليات الفكرية فكأنهم تركوا الحديث عن ماهية ما نسميه "فكر" واستدلوا عليه بالنظر فى أمثلة عليه كالاستنتاج أو الاستنباط ، فهـــذه عمـــليات فكـــرية وليســـت هى "الفكـــر"، فقد فعلوا ما فعله "أوطيفـــرون" حيـــنما ســـأله سقراط عن ماهية التقوى، فقال أنها فى

التقرب إلى الآلهة بممارسة الطقوس وتقديم القرابين لها. فكان رد سقراط أن ذلك مثالا سلوكيا على ما نسميه التقوى لكنه يريد أن يعرف من أوطيفرون ما الذى يجعل التقوى تقوى؟! إن هذا هو أساس التعريف.

وإذا تركنا هذه الموسوعات العامة وانتقلنا إلى المعاجم المتخصصة فسنجد نفس الشيء وإن كنا نقترب هنا من التحديد المطلوب؛ فالمعجم الفلسفى الذى أصدره مجمع اللغة العربية قد عرف "الثقافة" بأنها "كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو فى المجتمع وتشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق وجميع القدرات التى يسهم بها الفرد فى مجتمعه، ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية ولكل جيل ثقافته التى استمدها من الماضى وأضاف إليها ما أضاف فى الحاضر وهى عنوان المجتمعات البشرية ويفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الأولى ذات طابع فردى وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية فى حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعى ومادى".

وهنا نلاحظ أنه ربما كان القول بأن الثقافة هى كل ما فيه استنارة للذهن يشير بالفعل إلى ماهية صورية للثقافة - تشير إليها لفظة "ما" التى لم يحدد المُعرف محتوى لها - من حيث إن الثقافة

تعنى كما قال دلتاى اتساع المعرفة والوعى. ولكن استطراد المُعرف أفسد التعريف حيث تطرق إلى استطرادات زائدة عن الحاجة من جهة، كما ميز فى هذه الاستطرادات تمييزا غير موفق بين الثقافة والحضارة حينما قال بأن الأولى ذات طابع فردى والثانية ذات طابع اجتماعى، فهو نفسه قد قال قبل ذلك بأن الثقافة لدى الفرد أو فى المجتمع، فهناك ثقافة الفرد وثقافة الأفراد التى تتشكل منها ثقافة المجتمع ككل؛ فأى ثقافة لا تنفصل فيها ثقافة الفرد عن ثقافة مجتمعه إن كان هناك التوافق المطلوب بين الفرد ومجتمعه.

أما "الفكر" فقد عُرف فى هذا المعجم بأنه "بوجه عام، جملة النشاط الذهنى من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة. وهذا هو المعنى الذى قصده ديكارت بقوله "أنا أفكر إذن أنا موجود". وأنه "بوجه خاص ما يتم به التفكيرمن أفعال ذهنية، أسمى صور العمل الذهنى بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق".

وواضح أن هذا التعريف يشتمل على دور منطقى؛ فقد عِرف الشىء بنفسه فالفكر هو "التفكير" أو "مايتم به التفكير من أفعال ذهنية"، كما أنه اعتبر أن الوجدان والإرادة والعاطفة من الفكر. وكم من فروق بينها وبين الفكر. كما أن المُعرف قد استدل على معنى "الفكر" بعبارات شعورية أطلقها أحد المفكرين.

وعلى أى حال، فنحن لم نذكر هذه التعريفات لمجرد نقدها، بل ذكرناها لنوضح أننا كثيرا ما نستخدم الكثير من الألفاظ بمعنى واحد رغم اختلاف مدلولاتها فعلا. وكثيرا ما تختلط أمامنا المفاهيم لعدم دقتنا فى استخدام الألفاظ بحيث يترتب على ذلك أن نستخلص نتائج خاطئة نتيجة لذلك اللبس فى معانى الألفاظ المستخدمة.

وربما يكون من المناسب بعد ذلك أن نطرح ما نراه مميزا بين "الثقافة" و"الفكر"؛ فإن الثقافة هى جميع المعتقدات والأفكار التى يتوصل إليها الفرد نتيجة اطلاعاته المختلفة حول طبائع الأمور سواء كانت طبيعية أو سياسية أو أخلاقية أو دينية. إذ أن الثقافة ــ فى اعتقادى ــ تابعة للفكر وليس العكس كما يتصور البعض؛ فالثقافة التى تتشكل لدى الأفراد والجماعات فى أى عصر من العصور يصنعها مفكرو هذا العصر أو ذاك، ويتلقاها هؤلاء الأفراد فيتشكل بناء عليه وعيهم وتتسع مداركهم وتنمو أفكارهم وتتجدد، ومن ثم يلقبون بالمثقفين.

وإذا أردنا فى ضوء ذلك أن نحدد معنى "الفكر"، فهو ــ كما فى تعريف المعجم الفلسفى ــ أسمى صور العمل الذهنى، حيث يرتبط الفكر بالإبداع، فالمفكر هو المبدع الذى يستطيع بتأملاته الخروج عن دائرة المألوف. ويرى من أبعاد أى موقف ما لا يراه

بقية الناس، ومن ثم فهو الذى يتحمل تبعة إنهاض معاصريه وإيقاظ وعيهم باستمرار والاتجاه بهم – عن طريق ما يقدمه لهم من أفكار جديدة – إلى آفاق أرحب وأفضل. وبالطبع فإن كل مفكر مثقف، ولكن العكس غير صحيح؛ فالمثقف يتلقى نتاج فكر عصره ويفهمه، وإذا نجح المثقف فى أن يزيد من وعى معاصريه من خلال نقل هذا الفكر إليهم يكون قد أدى دوره كاملاً، وليس معنى ذلك أن نلقبه بالمفكر.

وإذا ما أدركنا ذلك الفرق بين "المفكر" و "المثقف" يمكن أن نتصور علاقة الفكر والثقافة بالحضارة؛ إذ أن كثيرا من الناس يتصورون خطأ أن الثقافة هى التى تخلق الحضارة وأن المثقفين هم روادها ومبدعوها، ويقيسون تحضر المجتمع بما فيه من مثقفين!!.

إن الحضارة بمظاهرها المتعددة من فلسفات وفنون وآداب وعلوم يبدعها الفلاسفة والمفكرون والعلماء. وفى كلمة واحدة يبدعها الأفذاذ فى كل ميدان من الميادين. ولا شك فى أن ظهور الفكر الجديد والمنهج الجديد هو نقطة البدء لأى حضارة ناشئة أيا كانت. وانظر فى كافة حضارات العالم قديمها وحديثها ستجد أنها قامت أول ما قامت على فكر جديد ومنهج جديد قدمه مفكروها وفلاسفتها وكان أن ساد هذا الفكر وذلك المنهج فأصبح هاديا للعلماء والأدباء والفنانين ثم صار حياة يحياها المثقفون أولا فالرجل العادى ثانيا.

ولكى نتمثل ما سبق يجب أن يقر فى أذهاننا الفرق بين "الحضارة" و"المدنية". والفرق بينهما يكمن فى أن الحضارة هى فى ازدهار تلك المظاهر التى عددناها من قبل دون التساؤل عن منفعتها وماتحققه لنا من اشباع مادى. أما المدنية فهى ليست تلك المظاهر الحضارية فى ذاتها، بل تبدو حينما نتساءل عن تلك المنفعة المادية التى نجنيها منها؛ فكأن لكافة مظاهر الحضارة جانبها الحضارى، وجانبها المدنى التقنى النفعى. وكثيرا ما نبه الفلاسفة وعلى رأسهم شبنجلر أن الحضارة إذا ما وصلت المدى النهائى فى إبداعاتها وتحولت إلى مدنية كان فى هذا بداية انحلالها فكأن "المدنية" تمثل مرحلة انحلال وانهيار "الحضارة"، وما ذلك إلا لأن التركيز فى تلك المرحلة يكون على الجانب المادى النفعى ويتوارى دور المفكر المبدع؛ فتقديم هذا الجانب المادى النفعى ليس مسئولية المفكرين والمبدعين، بل هو مسئولية رجال التخطيط والتنفيذ، ففرق كبير إذن بين أن يكون لدينا "فكر" و"حضارة"، وبين أن يكون لدينا "ثقافة" و "مدنية"؛ فالأولى علامتها الإبداع، والثانية علامتها الاتباع.

وقد يكون الأمر هينا ويمكن تداركه إذا ما كنا نتبع فى ثقافتنا فكرنا، وفى مدنيتنا حضارتنا. ولكن الواقع يقول أننا نتبع فى ثقافتنا فكر غيرنا، وفى مدنيتنا حضارة غيرنا. فما أسباب تلك الحالة التى نعيشها، وهل من مخرج؟؟

(٢)

فكر "السادة" ....
وثقافة "التابعين"(*)

(*) نشرت أيضا معدلة بجريدة الأهرام (؟) ـــ ثم نشرت كاملة بمجلة العربى التى تصدر بالكويت ـــ العدد ٣٥٩ ـ أكتوبر ١٩٨٨م.

obeikandi.com

فكـــر "السـادة" وثقـافـة "التابعين" ..

لقد قر فى أذهاننا منذ مطلع العصر الحديث أننا لكى نلحق بركب الحضارة لابد أن نساير الغرب سواء مسايرة تامة أو نحاول التوفيق بين ما ننقله عنه من مناهج وفلسفات وبين عناصر تراثنا الفكرى الإسلامى الأصيل. ولست أشك فى مدى إخلاص دعاة ذلك، فهم حاملو مشاعلنا ومن أناروا أمامنا طريق التقدم فى وقت كانت حلقة الإظلام والتعتيم علينا محكمة محكمه، وما زلنا إلى اليوم نؤمن بأهمية أن نتبعهم وأن نبدد ما تبقى أمام أعيننا من غشاوة وقتامة حتى نرى أنفسنا بصورة أفضل، ومن ثم نرى الغرب فى صورته الحقيقية.

وكل ما سأحاوله هنا هو أن أكشف أمام نفسى وأمامكم أعماقا أبعد لعلاقتنا بالغرب وعلاقة الغرب بنا.

فمنذ أن ظهرت على وجه الأرض أمة اليونان واستطاعت بذكاء شديد أن تبلور فكرها الخاص من خلال ما جمعته من فكر حضارات الأمم السابقة لها والتى كانت آنذاك فى طور من الانهيار؛ تعيش مدنية هى بواقى حضارات أفرغت محتواها. منذ ذلك التاريخ

obeikandl.com

قدم اليونانيون أنفسهم للعالم على أنهم هم المبدعون للفلسفة والعلم والآداب والفنون؛ فمنهم كان هوميروس وهزيود من الشعراء، ومنهم كان طاليس وفيثاغورس وبارمنيدس وبروتاجوراس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون من الفلاسفة، ومنهم كان ايسخولوس وسوفوكليس ويوربيدس من كتاب المسرح .. إلخ. ومن ثم فقد تصوروا، بل وعاشوا مقتنعين بأنهم هم سادة العالم وأحراره، وأن من عداهم من شعوب وأمم وقبائل ليسوا إلا برابرة وعبيد، فهم - أى اليونانيون - وحدهم من يصلحون للتأمل والفكر والقيادة والسياسية والعسكرية، ومن عداهم من أمم الشرق لا يصلحون إلا للرق والعبودية. وقد تناسوا آنذاك أن منهم من كان الأجير، والمرتزقة عند ملوك مصر القديمة، ولم يكن ذلك بالتاريخ البعيد؛ فقد كان آخر عهدهم بذلك فى عصر الدولة الحديثة وعصر أبسماتيك الأول مؤسس الأسرة الصاوية فى عام ٦٦٤ قبل الميلاد.

ولقد كان لفيلسوفهم وعالمهم أرسطو فضل ترسيخ تلك الصورة على أنها إعجاز يونانى غير مسبوق فى كافة ميادين الحضارة، وقدم منطقه على أنه كما بدا له أحيانا ولتلاميذه وشراحه دائما هو المنطق العام لضبط الفكر الإنسانى، وفلسفته على أنها الفلسفة التى يجب أن يعتنقها كل البشر، وعلمه على أنه العلم الذى يجب أن يتفهمه ويبرهن عليه ويستكمله ويسير على نهجه كل

العــلماء. وقــد زاد أرسطو تأكيد تلك المعجزة اليونانية وذلك التفوق بمــبادئ فلســفته السياسية؛ حينما اعتبر المواطن اليونانى هو مثال المواطــن بمــا لديــه من قدرة فكرية مبدعة وماليديه من خبرة فى المشــاركة السياسية. وبلغ من عنصريته أن أجاز الحرب لليونانيين فى حالــة واحــدة فقــط هى حالة نقص العبيد والأرقاء فى المدينة. فليحاربوا من أجل "اصطياد الأرقاء والعبيد" مختلف الشعوب.

وإن كــانت تــلك المعجــزة الفكرية قد اكتملت لدى أرسطو نظــريا، فــإن تــلميذه الإســكندر الأكــبر قد فرضها واقعاً ملموساً بانتصــاراته العســكرية التى جعلت امبراطوريته تمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى تخوم الصين والهند. ورغم ما يقال من حــلو الكــلام عن عظمة الإسكندر بأن خلقه كان الدعوة إلى الإخاء والمســاواة بيــن بــنى البشر، وأن دينه كان التوحيد، وأن هدفه صهر الحضارتين الشرقية والغربية وتكوين دولة عالمية واحدة، رغم كل ذلك فقد كان الإسكندر يحمل نفس عنصرية اليونانى الفكرية التى فاقت أحيانا عنصــرية أســتاذه. بل إنه كان يفضل ذلك التفوق الفكرى على كل ما حققــه مــن مجــد سياســى وعسكرى؛ فهذا هو الإسكندر يكتب رسالة لأرســطو - نشرها بلوتارخ فى الجزء الثانى من كتابه "السير" - يقول له فيها: "إنك لم تحسن صنعا بنشرك كتبك فى نظريات الخطابة - إذ ما الــذى بــقى لنا مما نمتاز به على الآخرين إذا أتيحت تلك الأشياء التى

تخصصـــنا فى معرفــتها للجميع؟ إنى أؤكد لك أنى من ناحيتى أوثر أن أمــتاز عــلى الآخــرين بمعرفة ما هو ممتاز على كل اتساع فى قوتى وامتداد لسلطانى".

ولعلنا قد أدركنا من هذه الكلمات المباشرة للإسكندر. أنه لم يكن يستهدف – كما هو شائع – نشر الفكر اليونانى فى الشرق بقدر ما استهدف التعرف على "هؤلاء البرابرة" وضمهم إلى دولته، وليقضى على ما بقى فى حوزتهم من تميز فكرى. ولاضير فى أن يتشكل أحيانا تشكلا زائفا، فيرتدى ملابسهم أحيانا، ويتقرب إلى آلهتهم أحيانا أخرى، ولا ضير فى أن يتزوج منهم ويوحى إلى قواده بأن يتزوجوا منهم أيضا!! لقد كان كل ذلك وسيلة لغاية أبعد هى تأكيد سيادة الجنس اليونانى فكراً وعقيدة.

ولشد ما أعجب بعرب الجزيرة العربية العظماء الذين أنار الدين الجديد عقولهم وحرر أخلاقهم، وجدد هممهم، فحملوا لواء حضارة فتية جديدة أساسها الإيمان الحق بإله واحد، وبالأخوة والمساواة العالمية (فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى). ولم يكن ذلك مجرد إيمان نظرى بشريعة إلهية .. بل عاشوها حياة حقيقية وسلوكا لا يعرف التشكل الكاذب ولا النفاق ولا الخبث. وسرعان ما سادوا العالم قولا وعملا بقوة الإيمان قبل قوة السلاح فاشتقوا لأنفسهم طريقا حضاريا جديدا وأصبح العصر عصرهم؛

فالفكر فكرهم، والعلم التجريبى علمهم، والمجتمع السياسى الحق أساس دولتهم الكبرى، وأخلاق القرآن حياتهم. وسرعان ما أقبلوا على فكر هؤلاء الإغريق فنقلوه ثم شرحوه وفهموه فهضموه. وبعد الشراح ظهر المبدعون؛ ففى الفلسفة ظهر الغزالى بعد الفارابى وابن سينا ، وظهر ابن خلدون بعد ابن رشد. وفى العلم ظهر جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن البيطار وابن النفيس وغيرهم. وكان رجال الفقه والقانون الذين نقلت أوربا تشريعاتهم وقوانينهم، وكان رجال السياسة الأفذاذ كعمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان، وكان العسكريون العباقرة كخالد بن الوليد وطارق بن زياد .. إلخ. وكذلك كان الشأن فى مختلف الآداب والفنون والعلوم.

وإن كان الحال فى العصر الوسيط قد تغير من جانبنا وصار المسلمون بحق هم سادة العصر ومعلميه دون تعالٍ ودون عنصرية فإن الغربيين ظلوا على عنصريتهم وعنجهيتهم القديمة؛ فقد نقلوا عنهم وأنكروا، وأخذوا منهم ما أخذوا ولمَ يظهروا لذلك أثراً؛ فإن أردت أن تبحث عن اسم أحد التجريبيين العرب فى مؤلفات روجر بيكون أو فرنسيس بيكون فلن تجد، وإن حاولت أن تبحث عن اسم أبى العلاء المعرى فى كوميديا دانتى الإلهية فلن تجد، وأن تصورت أنك يمكن أن تجد اعترافا بالتأثر من جانب قانونى أو سياسى غربى، أو لدى أى عالم أو فيلسوف فأنت واهم!! فهم لا يعترفون لأحد بأى

فضل. ولا يذكرون غيرهم إلا حينما يكون وسيطا كابن سينا أو ابن رشد ينقلون من خلاله فكر أسلافهم.

لقد تصوروا أنهم صانعو عصر النهضة الغربية بابداعاتهم هم فقط وبعض ما أحيوه من أفكار أسلا فهم من اليونانيين، وأنهم لم يستفيدوا شيئا من المسلمين أومن الشرق ــ اللهم إلا بعض شروح لأرسطو أو لجالينوس وإضافات طفيفة لابن حيان وابن الهيثم. إنهم ظلوا فى نظر أنفسهم هم سادة الفكر وقادة العالم إلى التنوير والانتقال من عصور الظلام (العصر الوسيط كما ينظرون إليه) إلى عصر العلم التجريبى والفلسفة العقلانية الحديثة. وليست الحضارة الغربية بكافة مظاهرها إلا سليلة للحضارة الغربية القديمة (الحضارة اليونانية).

و شيئا فشيئا، وكما فعل أجدادهم، طمسوا الحقيقة الناصعة ــ حقيقة العصور الإسلامية الرائدة المبدعة ــ وجعلوها باهتة قاتمة. ومرة أخرى صوروا لأنفسهم وللعالم أنهم صانعو مجد الإنسان الحديث وحدهم وإنهم من بين بنى البشر من يملكون قدر البشرية كلها، فلابد أن ينصاع العالم لهم وأن تسلمهم البشرية قيادها. إنهم لا يزالون السادة وماعداهم من التابعين؛ إنهم يملكون وحدهم الفكر والإبداع، وغيرهم يستورد ما يصدرونه له من نفايات المدنية وتافه الثقافة وأحط الأخلاق حتى يتشكل الجميع بنموذج غربى زائف.

وقد تحقق لهم ما أرادوا إلى حد كبير؛ فلم يعد الشرقى شرقيا بأصالته، ولا العربى عربيا بعروبته، ولا المسلم إسلاميا فى إسلامه، لأن كلا فقد الارتباط بجذوره الأولى وأصبح كريشة عالقة بالهواء تدفع بها رياح التغريب إلى أى اتجاه تشاء. فالجميع رضى لنفسه الاتباع بدلا من الإبداع؛ حينما رضى لنفسه الثقافة بدلا من الفكر، والمدنية بدلا من الحضارة.

وقد برع الغربيون بمؤسساتهم ومستشرقيهم فى غزونا ثقافيا بعد أن غزونا عسكريا واقتصاديا بعدما تيقنوا أن ذلك الغزو الثقافى أشد أنواع الغزو فتكا وأطولها أمدا. نجحوا فى غزونا بكل وسائل دعايتهم واعتمدوا فى ذلك لا على فكرتهم عنا فحسب ــ وهى فكرة أساسها أنهم المبدعون ونحن التابعون ــ بل على فكرتنا نحن عن أنفسنا وهى لم تعد مختلفة عن الأولى؛ لأنه قد قر فى أذهاننا كما قلت فى البداية أنه لا مفر من أن نتبع الغرب إن أردنا أن نتقدم.

وعلى ذلك فقد أصبحنا نقبل منهم كل شىء دون روية أو تدبر؛ فإن ظهر هناك أديب من الدرجة العاشرة وأعطوه جائزة نوبل لأسباب سياسية أو ما شابه ذلك نقلنا كل أعماله وقلدناه. وإن ظهر هناك مذهب فلسفى جديد سارعنا إلى ترجمته وأصبح موضة نتمثلها ونقيم أنفسنا بمقدار ما نقلنا عنه أو ما استطعنا تمثله منه، أو بمقدار استطاعتنا التشدق بمصطلحاته الإفرنجية رغم أنه ربما يكون أبعد ما

يكون عن بيئتنا وواقعنا، بل ربما يكون نقله في غير صالحنا، وفي أفكاره هدم لنا وقضاء على تقدمنا ونهضتنا، وفقدان لهويتنا.

ولا يظن أحد أنني من دعاة الانعزال. ورفض كل ما هو غربي. فهذا أبعد ما يكون عن قصدي الآن. بل كل ما في الأمر أنني أردت أن أدلل على أننا بالفعل لا نقيّم أنفسنا إلا بما نتمثله من الغرب وبمعايير الغرب، وفي هذا يكمن الداء، داء التبعية ..

وهو داءٌ لو تعلمون خطير، ونتائجه أكثر خطورة؛ فنحن لم نعد ننظر لأنفسنا على أننا أهل للإبداع!! بل أصبحنا ننظر لأنفسنا على أننا عاجزون عن مجاراة الغربيين في كل شيء، فمابالك بالخروج عليهم!!.

إن المفكر المبدع إن ظهر في مجتمعنا حاربناه ولم نعطه فرصة النمو والإبداع في حرية واستقلال عن النموذج الغربي، بل اتهمناه بالتخلف والنكوص. وإن ظهر لدينا عالم فذ اتهمناه بأنه ربما سرق من الغرب، وضيقنا عليه الخناق حتى يهجرنا إلى حيث يجد كل الرعاية في الغرب فيصبح إنتاجه ملكا لهم ويصدر باسمهم. وأحيانا ما يخطئ الكثيرون ويتصورون أنه القدر؛ فقد كُتب علينا في ظل هذا التقدم العلمي الرهيب للغرب بأن نظل تابعين لا مبدعين.

ولكن الحق أننا قد حمّلنا القدر ما لا ذنب له فيه وما أشفقنا على أنفسنا من حمله، إن مشوار الألف ميل كما يقال دائما يبدأ

بخطوة، وأول الخطى هى أن ننفض عن أنفسنا غبار التبعية بعد أن نخرجه من أدمغتنا وأوصالنا، وهنا يجب أن يكون دور المفكر الرائد المستقل؛ الذى إن درس الفكر الغربى لا يتشكل به ولا يلبس عباءته؛ دور العالم المرتبط ببيئته والعاشق لها، الذى إن اطلع على النظريات الغربية أو درس فى جامعات الغرب عاد إلى تلك البيئة ليستخرج منها أقصى امكانياتها، ويعيد تشكيلها من جديد إن كان ذلك ممكنا؛ دور الأديب الذى إن اطلع على الأدب الغربى لا ينبهر بأشكاله أو بمضامينه، بل يكون انبهاره بما تزخر به بيئته الشعبية الأصيلة من موضوعات ومضامين قل أن يوجد مثيلها فى العالم .. فهل نحن فاعلون أم سنظل ندور وندور فى تلك الدائرة المفرغة التى أرغمنا على دخولها أو أدخلنا أنفسنا فيها ولا هى منا ولا نحن منها!!؟

obeikandl.com

(٣)

موقفنا من الفكر الغربى .. تحليل معرفى (*)

(*) نشرت بجريدة الأهرام . ؟.

obeikandi.com

موقفنا من الفكر الغربى
تحليل معرفى .....

إن قضية "الهوية الثقافية المصرية" قضية بالغة الأهمية، لما لها من تأثير مباشر على هويتنا ككل؛ فلو استطعنا تحديد هويتنا الثقافية الحقيقية وتمثلناها جيداً لاستطعنا أن نعرف بالتالى هل لنا هوية فى نظامنا التعليمى، أو فى نظامنا السياسى، أو فى نظامنا الاقتصادى ... إلخ!!.

فالهوية الثقافية تمثل بلا شك مركز الدائرة بالنسبة للهوية المصرية إذا أردنا لها أن تكون فى حاضرنا ومستقبلنا كما كانت لنا فى ماضينا. وسأقتطع لنفسى قضية هى فى اعتقادى جوهر تلك القضية العامة، ألا وهى موقفنا من النتاج الفكرى للحضارة الغربية المعاصرة. وهى قضية كثر الحديث حولها حتى بلغنا فيها درجة الملل، وذلك الملل فى اعتقادى يرجع إلى أننا لخصناها فى إطار قضية قتلت بحثا دون جدوى وهى "الأصالة والمعاصرة"، حيث تتابعت أحاديث المتحدثين وكتابة الكاتبين حول المواقف الثلاثة المحتملة؛ فإما يقفون موقف المتقوقع داخل ذاته الرافض للتراث الغربى القديم منه والحديث، وإما يقفون موقف المنبهر بالثقافة الغربية ومنجزاتها فيطالبون بأن نكون غربيين منهجا وموضوعا،

وأما الموقف الثالث والذى يمثله المعتدلون من المفكرين فهو محاولة المزج بين الموقفين السابقين، حيث يرون ضرورة أن نكون معاصرين فى تصوراتنا ومنهجنا وأصلاء فى إحياء ما هو صالح من تراثنا للحفاظ على هويتنا الحضارية.

ولكنى أرى أن للقضية وجها آخر يبدو إذا ما نظرنا إليها من زاوية "نظرية المعرفة"؛ حيث إننا نميز فيها بين عارف ومعروف، بين ذات هى التى تعرف، وموضوع هو الذى نعرفه سواء كانت أداة المعرفة هى الحواس أو العقل أو الحدس أو بهم جميعا. وإذا ما طبقنا ذلك على معرفتنا بجوانب الحضارة الغربية المعاصرة، لكان من الضرورى أن نميز بين "ذاتية العارف" و "موضوعية المعروف"، أو بين "ذاتية الشارح" و "موضوعية المشروح"؛ فما أنتجه التراث الغربى الحديث والمعاصر يمثل بالنسبة لنا باستمرار مادة موضوع المعرفة، وقد درجنا على أن ننقل هذا الموضوع (بكافة مضامينه وأشكاله) ونتوحد معه خاصة فى مجال العلوم الإنسانية؛ فعالم الاجتماع مثلا ينقل النظريات الغربية كالوضعية والماركسية والبراجماتية. ويحاول أن يلوى عنق ظواهرنا الاجتماعية لتعطيه نفس النتائج التى تتلاءم مع ما يؤمن به من نظريات غربية. وكذلك يفعل علماء الاقتصاد وعلماء النفس وعلماء السياسة وعلماء التاريخ.. إلخ.

وإن كان هناك من يعون خطورة هذه المسألة ويحاولون البدء فى دراساتهم من واقعنا الاجتماعى أو الاقتصادى أو التاريخى .. وهكذا، فإنهم قلة لم يتوافر لهم المناخ المناسب للعمل كفريق مؤثر فى مجال دراساتهم.

وخطورة هذا التيار العام السائد الذى يتوحد فيه الدارسون مع الدراسات الغربية ويتخذونها كأنموذج ينبغى أن تبنى عليه دراساتهم، تبدو مما فى هذا الاتجاه من عدم التمييز بين "موضوعية المعروف" و "ذاتية العارف"؛ فإن كان علينا أن نلم إلماما واسعا بالدراسات الغربية فى مختلف مجالات العلوم الإنسانية، فلا يجب أن يمثل هذا الإلمام عائقا أمام معرفتنا واكتشافنا لذاتنا، والتركيز على إفراز نظريات ومدارس خاصة بنا ندرس من خلالها مجتمعنا واقتصادنا وتاريخنا ..إلخ.

وفى اعتقادى أننا لن نصل إلى هذه الدرجة الناضجة من العلم إلا بعد إدراك تلك الحقيقة الهامة المتمثلة فى أن ما قدمه التراث الغربى من نظريات هى فى عمومها نظريات غير صالحة للتطبيق علينا، وعدم صلاحيتها نابع من أن لكل مجتمع ظروفه الخاصة وسيكولوجيته الخاصة وفكره الخاص، بالإضافة إلى أن لكل مجتمع عاداته وتقاليده وقيمه الخاصة. ونحن حينما نطبق تلك النظريات الغربية على أنفسنا نخطئ هذا الخطأ المزدوج؛ خطأ عدم التمييز بين النظرية والتطبيق، وخطأ يتمثل فى عدم الثقة بالنفس وبالتالى فقدان القدرة الذاتية على العطاء والإبداع والإضافة.

إن ثمة فارقا هاما بين أن ندرس تلك النظريات الغربية لنتمثلها ونهضمها ونفيد منها على المستوى النظرى، وبين أن ندرسها ونفسر أنفسنا من خلالها أى أن نتخذها قوالب نضع أنفسنا داخلها.

وربما يكون من المفيد هنا أن نعود إلى مثل حضارى نتفهم القضية من خلاله، وأوضح مثل لدينا هو حضارتنا الإسلامية فى العصر الوسيط. لقد كان أمام العلماء والفلاسفة المسلمين تراثا غربيا زاخرا هو التراث اليونانى. ولا شك أن أجدادنا قد شغلتهم القضية التى تشغلنا الآن: أينقلون عن اليونانيين إبداعاتهم، أم يتقوقعون داخل ذاتهم! وكان الحل لديهم إيجابيا وفعالا؛ فنقلوا معظم الإبداعات اليونانية فى مجال العلوم المختلفة، ولكن هل نقلوها لتمثل قيداً أمام إبداعاتهم هم؟!

النظر فيما أنتجوه يؤكد أنهم أدركوا هذا التمييز بين "موضوعية المشروح" و "ذاتية الشارح". وإذا ما أخذنا مجال الفلسفة كمثال؛ فسنجد أن الفلاسفة الإسلاميين قد شرحوا أرسطو بدءاً من الكندى، الفارابى، ابن سينا، حتى ابن رشد الذى لقب بالشارح الأكبر. لكن هل كانت شروحهم لأرسطو مجرد شروح لفيلسوف يونانى انبهروا بفلسفته وبمنطقه كما انبهر به جميع مفكرى العصر الوسيط؟؟

إن القارئ لتلك الشروح يكتشف بوضوح ذاتية الشارح؛ فهم لم يقبلوا من أرسطو إلا ما وجدوا أنه يتفق مع نظرتهم إلى الأشياء،

وما رأوا أنه يتفق مع ما أتى به دينهم الحنيف. وإذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر متخصصة - أى من وجهة نظر دارسى أرسطو وأنا منهم - سنجد أن شروحهم قد خرجت على النص الأرسطى وخالفته وتجاوزته لدرجة أنه من الممكن اتهامهم من هذه الناحية بأنهم أساءوا فهم أرسطو. لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا يشرحون أرسطو بقدر ما كانوا يتخذون من أفكار أرسطو - باعتباره الصورة الساطعة للفكر والعلم فى عصرهم - وخاصة ما يتشابه منها مع أفكارهم الدينية والاجتماعية، كانوا يتخذون من منطقه وفلسفته أسلحة يواجهون بها أعداء دينهم. فكأنهم هنا قد ضربوا عصفورين بحجر واحد؛ فقد كانوا معاصرين حينما تمثلوا ثقافة عصرهم ونقلوا إبداعات غيرهم وشرحوها. وكانوا أصلاء حينما لم يسمحوا لهذه الثقافة بأن تسيطر عليهم ولا أن تكون عائقا أمام فكرهم هم. إنهم أدركوا أهمية إخضاع أرسطو وغيره من مفكرى اليونان لتأويلهم هم، بما كان فى ذلك التأويل من خصوصية عناصر الثقافة الإسلامية - العربية آنذاك.

والسؤال الآن، أين نحن من نقل التراث الغربى الحديث والمعاصر؟! إننا لم نتجاوز بعد مرحلة النقل والتبعية لما ننقل لأننا إذا نقلنا وشرحنا، فلا صدى واضح للذاتية فى ذلك النقل والشرح. بل أننا ننقل تلك النظريات الغربية ونطبقها على واقعنا الخاص دون فحص ودون تدقيق، فكانت النتيجة الحتمية أن فقدنا هويتنا أمام

زحف تلك النظريات الغربية وتسللها لتعشش داخل أدمغتنا أولا، فواقعنا ثانيا. ومن ثم أصبحنا تابعين للغرب شكلا وموضوعا.

لقد غاب الوعى بفحوى هذه القضية وتلك التمييزات إلا من مفكرين أجلاء تمثل لديهم ذلك الوعى يبدأون برفاعه رافع الطهطاوى مرورا بأحمد لطفى السيد وطه حسين إلى استاذنا الكبير زكى نجيب محمود..

فقد بدأ الطهطاوى عصر الترجمة الواعية لعناصر الفكر الغربى، وحاول من خلال اطلاعه على الحضارة الغربية أن ينقل مجتمعه خطوات إلى الأمام، وأدرك آنذاك أهمية البدء بقضية التعليم فكتب "المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين" ليوضح أن مارآه لدى الغربيين من تقدم فى مناهج التربية يوجد مثيله بل أفضل منه فى تراثنا الإسلامى، فكانت دعوته لتعليم البنات والبنين فى ظاهرها مستقاة من زيارته لأوربا لكن جاء تعبيره عنها مقبولا لدى الجميع لأنه قام بتأصيل دعوته من خلال تراثه. ولعل فى ذلك ما يكشف لنا عن أسباب تقبل الناس لدعوة رفاعة الطهطاوى فى القرن التاسع عشر بينما لم يقبلوا نفس الدعوة من قاسم أمين فى القرن العشرين حينما دعى إلى تحرير المرأة وتعليمها حيث هوجم ليس من غلاة المتشددين فقط، بل من بعض الصفوة من المثقفين الوطنيين وعلى رأسهم طلعت حرب.

ولقد كان أحمد لطفى السيد مترجما لأرسطو وفى نفس الوقت كان الأستاذ الجامعى الواعى بأهمية أن ينقل ويشرح دون أن يكون

تابعا، فكان رائداً من رواد نهضتنا الثقافية التى تعتمد على النفس بقدر ما تعرف وتتمثل تراث الغير وثقافته، كما تمثل لدى طه حسين الوعى بأهمية الثقافة الغربية كمنهج يمكن من خلاله دراسة جوانب عديدة من تراثنا؛ فقد نبه إلى أهمية التراث اليونانى الكلاسيكى فى إثراء الآداب والفنون العربية الحديثة، باعتبارها كانت من عوامل إثراء الآداب والفنون والفلسفات الغربية فى مطلع عصر النهضة. كما قام هو باستيعاب المنهج الديكارتى، وتطبيقه فى دراسته للأدب العربى، فهو إذن قد درس ديكارت لا لكى يقع فريسة له ولآرائه الفلسفية، بل ليوظفه ويستخدمه فى دراساته لتراثه العربى الأدبى. ونفس الشيء فعله أستاذنا د. عثمان أمين مع ديكارت، فقد كان من ألمع دارسى ديكارت والمتخصصين فيه فى العالم، ومع ذلك فقد كان الفكر الديكارتى بالنسبة إليه كالمصباح الذى ينير له الطريق؛ فقد قدم فلسفته الجوانية فى كتابه "الجوانية" وهو يحمل ذلك المصباح الديكارتى دون أن يكون المضمون ديكارتيا، بل كان عربيا إسلاميا.

أما زكى نجيب محمود، فقد حمل مصباح التنوير من خلال العلم والدعوة الملحة إلى طريقه. وقد أخطأ من يظن أنه مجرد داعية لتيار فلسفى غربى هو الوضعية المنطقية؛ فهو قد استخدم الفكر الوضعى باعتباره دعوة واضحة المعالم إلى التفكير العلمى الذى هو طابع العصر الذى نعيش فيه. وقد أكد ومازال يؤكد بكافة أساليب وصور الكتابة أن علينا أن ندخل العصر من بوابة العلم، من خلال

استخدام المنهج العلمى فى كافة دراساتنا العلمية. ولم تكن الدعوة تأثرا منه بالفكر الغربى فقط، فسرعان ما كشف لنا د. زكى فى الكثير من دراساته ومقالاته عن أن هذه الدعوة إلى العقلانية وإلى علمية التفكير موجودة فى تراثنا الإسلامى العربى، وقد طبقها الأجداد، ليس فى دراساتهم الدنيوية العلمية فقط، بل فى فهمهم لأمور دينهم أيضا. وما علينا الآن إلا أن نستعيد هذه الروح العلمية الوثابة النشطة الساعية إلى كشف الجديد باستخدام كل وسائل العصر التكنولوجية.

إذن لقد وعى هؤلاء الأقطاب بأن دراستنا للنظريات الغربية شىء واستفادتنا منها وتوظيفها لصالحنا شىء آخر؛ فقد درسوا النظريات الغربية وشرحوها باعتبارها ثقافة العصر التى لابد أن نفهمها ونتفاعل معها، لكنهم وعوا فى نفس الوقت أن عناصر معينة من تلك الثقافة هى فقط التى تلائمنا لأنها تتفق مع ما لدينا من تراث خصب من ناحية، ولأنها تركز على المنهج العلمى فى التعامل مع المشكلات من ناحية أخرى. وهذا أمر مطلوب فى كل الدراسات إنسانية كانت أو طبيعية.

وما علينا الآن إلا أن نعى نفس الدرس الذى وعاه هؤلاء الرواد ونستكمل مسيرتهم عالمين بأنه ينبغى أن نتطور فى اتجاه التخلص من كافة أشكال التبعية للغرب ثقافية كانت أو سياسية أو اقتصادية .. إلخ، وبأن هذا التطور لن يكون إلا إذا أدركنا بوضوح أن هويتنا الثقافية ترتكز على عناصر أساسية هى:

أولاً : أننا مصريون بحكم المواطنة والحضارة العريقة المتجددة دائما، وهذا يعنى ضرورة أن نلم بعناصر الثقافة المصرية قديمها وحديثها (فكرية كانت أو تاريخية أو اقتصادية أو جغرافية)، مع الوعى بأن تلك العناصر كانت ولا تزال وستظل فى حوار دائم مع عناصر الثقافة لدول البحر الأبيض المتوسط.

ثانيا: أننا عرب بحكم الموقع واللسان والتاريخ، وأننا أفارقة بحكم الموقع والتاريخ المشترك وباعتبار أننا وهم نخضع لنفس الظروف وينتظرنا نفس المصير.

ثالثاً: أننا قوم متدينون ــ من عصر قبل التاريخ ــ يمثل الدين ركنا أساسيا من ثقافتنا ويشكل الجانب الأكبر من وجداننا.

رابعاً: أننا نعيش فى عصر لا مكان فيه لمن لا يأخذ بالمنهج العلمى فى التفكير أيا كان المضمون والمشكلة التى يعالجها.

وختاما، أقول أن التحدى الحضارى الذى نواجهه، والذى تلخصه العبارة الشهيرة "نكون أو لا نكون" يتطلب منا ضرورة الإسراع فى التخلص من التبعية للغرب، كما يتطلب منا سرعة تمثل تلك العناصر وهضمها لتصبح هى حياتنا التى نحياها ومنهجنا الذى نفكر به.

(٤)

ضد العولمة..(*)

(*) نشرت بجريدة الأهرام تحت عنوان "فى مواجهة العولمة" فى ١٢/٤/١٩٩٨م.

ضـــد "العولـمــة"

لعل ما يجرى الآن على الساحة الدولية فى أزمة العراق مع الولايات المتحدة الأمريكية يقنع من لم يقتنع حتى الآن بأن منطق "القوة" هو السائد فى عصر ما يسمونه "بالعولمة" و "الكوكبية" أو اختصارا عصر القطب الواحد!.

ولعل فى العودة إلى الماضى البعيد وإلى الماضى القريب من تاريخ علاقات الغرب بالعالم ما يفيد فى فهم أن هذا المنطق "منطق القوة" لامنطق الفهم والحوار المتبادل هو المنطق الوحيد الذى يفهمه الغربيون طوال تاريخهم.

❁ إن للأمريكيين المعاصرين أجدادا فى الفكر اليونانى القديم هم من كانوا يلقبون فى القرن الخامس قبل الميلاد بالسوفسطائيين. إنهم كانوا يؤمنون بنفس ما يردده الفلاسفة الأمريكيون اليوم من مبادئ المنفعة والقوة. وحينما طرح موضوع "العدالة" للنقاش فى إحدى محاورات أفلاطون، محاورة "الجمهورية" هب أحد السوفسطائيين ويدعى تراسيما خوس قائلا: إن العدالة تسير مع مصلحة الأقوى وجودا وعدما. فالعدالة هى ما يؤمن به الأقوى وما يفرضه على الآخرين.

۞ وليس ببعيد عن ذلك الفهم الملتوى لمعنى العدالة، قول أرسطو الفيلسوف الكبير لليونان القديمة أن الحرب جائزة فى حالة واحدة هى حالة "اصطياد الأرقاء"؛ إنه على الرغم من أن أرسطو هو القائل بأن ماهية الإنسان أنه ذلك "الحيوان العاقل"، إلا أنه حينما يتحدث عن الحرب لا يرى لها ضرورة إلا حينما يقل عدد العبيد فى دولة المواطنين الأحرار، "دولة المدينة" بالاصطلاح اليونانى القديم. ومن ثم يمكن لدولة المواطنين الأحرار من اليونانيين أن تشن الحرب على جيرانها من "البرابرة" أى الأجانب حتى يمكنها توفير العدد اللازم من هذه "الآلات الحية" لربة المنزل أى من العبيد! إن إنسانية الإنسان إذن مقصورة فى عرف أرسطو على اليونانى الحر، أما ماعدا ذلك فإنهم أناس لا يصلحون إلا للرق والعبودية!

۞ ظهر فى اليونان القديمة قوة اقليمية عظمى هى الدولة المقدونية قادها الملك فيليب والد الإسكندر الذى عرف فيما بعد بالاسكندر الأكبر. وحينما تولى الاسكندر الحكم وكان عمره آنذاك حوالى ١٧ عاماً بدأ اجتياح الدول اليونانية الأخرى وبدأ فى غزو بلاد الشرق فارس والهند ومصر .. فكتب له أرسطو الذى كان مُعلمه قبل أن يصل إلى الحكم رسالة سماها "فى الاستعمار" فحواها أنه لا يوافق تلميذه الاسكندر على غزو الشرق لأن من شأن هذا

الغزو القضاء على تميز الجنس اليونانى حينما يحتك اليونانيون بالشرقيين وهم أصحاب حضارات أعرق! فماذا كان رد التلميذ الغازى! رد قائلا: إنه يغزو الشرق حتى يجعل الثقافة اليونانية والفكر اليونانى هو فكر العالم وثقافته. وبالطبع فلم يسمع التلميذ صاحب منطق القوة لنصيحة الأستاذ صاحب الرأى والخبرة، فحقق غزواته وتواصلت انتصاراته العسكرية والسياسية لكنه لم يحقق عولمة الفكر اليونانى كما توقع لأن الشعوب لا تتنازل بسهولة عن ثقافتها الوطنية خاصة إذا كانت عريقة عراقة حضارات الشرق بالقياس إلى الحضارة اليونانية الفتية الغازية. لقد انصهر فكر اليونان فى فكر الشرق وعاد الفكر اليونانى شرقيا فى اتجاهاته وملامحه كما بدأ شرقيا فى اتجاهاته وملامحه منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

۞ وإذا تركنا الماضى البعيد ونظرنا فى الماضى القريب مرورا بعصر وسيط تعلم فيه الغربيون لأول مرة المعنى الحقيقى للعدالة ولحقوق الإنسان على يد العرب والمسلمون ومن خلال القرآن الكريم الذى تدارسوه جيدا فى فجر عصر نهضتهم الحديثة، ونقلوا عنه وعن المؤمنين به كل ما تغنوا به من مبادئ الحق والعدل والمساواة والإخاء بين البشر .. إلخ. فماذا نجد فى هذا الماضى القريب؟! نجدهم وقد انقسموا فريقين؛ الشرق الماركسى والغرب الرأسمالى.

تقود روسيا الفريق الأول، وتقود أمريكا الفريق الثانى. ورغم أن القوة الأولى كانت فى يد أناس متحضرين وإن امتلكوا أو اعتقدوا فى فلسفة استبدادية جامدة. ورغم أن القوة الثانية كانت فى يد أناس همجيين تجمعوا من أصول وأعراق شتى فى تلك الأرض الجديدة هربا من فقر أو من جرائم أو سعيا وراء تحقيق مجد لم يستطيعوه فى بلادهم الأصلية. أقول رغم هذا الاختلاف بين القوتين الأعظم فى ذلك الماضى القريب إلا أن الهدف كان واحدا وهو السيطرة على الشعوب الأخرى والاستبداد بها واستنزاف مواردها تحت نفس الحجة حجة تحديث هذه الشعوب وتمدينها!!.

إنه نفس الهدف الذى سعى إليه المستعمر الأوربى سواء كان فرنسيا أو انجليزيا أو برتغاليا أو أسبانيا فى القرن التاسع عشر. لقد استخدم هؤلاء القوة العسكرية فى غزو العالم وقهر شعوبه بحجة تحديثها وتمدينها وإعمارها!!.

۞ لقد كتب جارودى أروع مؤلفاته بعنوان "حوار الحضارات" واصفا ما صنعه الغربيون طوال تاريخهم بشعوب العالم الأخرى بأنه صنع "الشر الأبيض". وأطلق هذا الوصف وصف "إمبراطورية الشر الأبيض" على الغربيين. وهو أدق وصف يمكن أن توصف به أمم الغرب طوال تاريخها. فهى الأمم التى كانت دائمة السطو على

إنجازات الآخرين. ودائمة الاعتداء على حقوقهم وأراضيهم ومواردهم تحت حجج واهية ودعاوى فارغة لا تنطلى على أحد!! لكن هذه الدعاوى الفارغة كانت تفرض نفسها على الآخرين بالقوة العسكرية.

إن ماقدمه جارودى فى ذلك الكتاب الهام من تعرية لما يسمى بالحضارة الغربية وهى فى واقع الأمر ليست سوى مدنية مادية فارغة من أى محتوى روحانى أو معنوى!!، أقول إن ما قدمه فى هذا الكتاب كان حقائق شديدة الوضوح تكشف كيف تعامل الغربيون مع شعوب العالم الأخرى من منطق القوة وفرض الرأى. وإنى رغم موافقتى له على كل ما قال إلا أنى لم أوافقه على ما طرحه من ضرورة "الحوار الحضارى"؛ فقد تصور أنه يمكن للغربيين اليوم إذا ما وعوا تلك الحقائق المُرة من تاريخهم البعيد والقريب أن يتواضعوا وأن يعترفوا بأهمية الثقافات الأخرى وبإمكانية الاستفادة من المنجزات الحضارية للشعوب الأخرى. ومن ثم أن يقبلوا الحوار مع أبناء هذه الحضارات فى عالم يستفيد فيه الجميع من الجميع ويتبادلوا الخيرات المعنوية والمادية.

وقد رددت على ذلك التصور حين قراءتى للترجمة العربية للكتاب تحت عنوان "الحوار المستحيل بين حضارات الشرق

وامبراطورية الشر الأبيض"(*). وكان فحوى الرد أن الحوار لا يكون إلا بين أناس يؤمنون بالحوار ويقبلون الرأى الآخر بأريحية وبحب وللأسف فرغم أن الشائع عن الحضارة الغربية أنها حضارة الرأى والحوار فإن العكس تماما هو الصحيح. فهى حضارة لا تؤمن إلا بالحوار مع ذاتها وإذا قبلت من الحضارات الأخرى أى شئ فإنها لاتقبله إلا بعد أن يصبح جزءا من نسيجها ومنسوبا إليها لا إلى أصحابه الأصليين!! إن الحوار كما قلت فى ذلك الرد لا يكون إلا بين متكافئين ومع الأسف فإن الغربيين منذ فجر حضارتهم فى اليونان القديمة كانوا عنصريين ينظرون إلى الآخرين نظرة استعلاء. ولا تزال هذه النظرة الغربية للآخرين هى السائدة رغم كل ما يطفو على السطح من قيم يروجها الإعلام وليست من الواقع فى شئ!!.

وإذا كان ذلك كذلك فإن الحوار لا يمكن أن يقبله الغربيون إلا فى ظل وجود القوى المتكافئة فإن كنت قويا بما فيه الكفاية فهناك مساحة للحوار وللتفاهم وإلا فلتقبل ولتذعن لكل ما يقال لك بدون مناقشة أو إبداء رأى آخر!!.

وهذا هو ما نراه اليوم ببساطة وبدون أى مواربة أو خجل. ولعلنا بذلك نكون قد فهمنا الدرس. فالحوار لا يكون إلا بين قوى اقتصادية وعسكرية متكافئة. هذا هو المنطق الوحيد الذى يفهمه

(*) راجع المقالة الثانية عشر من هذا الكتاب .

الغربيون. فهل نحن قادرون على تحقيق هذا التكافؤ حتى يسمعنا الطرف الآخر الذى لا يؤمن إلا بعدالة الأقوى؟! هذا هو السؤال ونحن دائما فى انتظار إجابة من لا يزالون يؤمنون بسذاجة بقيم العولمة والكوكبية الأمريكية!!

۞ ولــكى أساعدهم على الإجابة الصحيحة. فإن عناصر القوة اليــوم لا تقــف عــند حد القوة العسكرية، كما لا تقف عند حد القوة الاقتصـــادية، وإن كـــانت أهم عناصر القوة وأشدها تأثيرا وأكثرها مســاعدة فى فــرض الهيمنة على الآخرين؛ فعناصر القوة اليوم قد اتســعت لتشمل قوة المعلومات والإنترنت بما تشتمل عليه من قنوات فضــائية ضـــخمة ووكـــالات إخبارية ترصد دبة النملة على أرض الغير، وصحف عابرة للقارات وخلافه!، واتسعت لتشمل أيضا العديد مـــن الاتفاقيـــات الدوليـــة التى وضعت جميعا لتسهيل مهمة الهيمنة الغـــربية على بقية شعوب العالم كاتفاقية الجات الاقتصادية واتفاقيات الحد من الأسلحة النووية والبيولوجية وغيرها!!.

إن وسائل الهيمنة على الآخرين وفرض الرأى الغربى عليهم قد تتغير من عصر إلى عصر لكنها تصب دائما فى تحقيق نفس الهدف. هدف وجود الرأى الواحد والثقافة ذات البُعد الواحد والخبرات التى تصب فى معين واحد. إنه دائما "الغرب" سواء قادته

اليونان قديما أو أوربا حديثا أو أمريكا فى العصر الحالى. ونحن نعيش فى أسوأ عصور الهيمنة الغربية لأننا كما قلت نعيش فى عصر تعددت فيه صور القوة الغربية، لدرجة جعلت البعض منا يتصور أنه إنما يفكر معبراً عن استراتيجية عربية مختلفة وهو فى الواقع مجرد آلة فى ترس الدعاية للاستراتيجية التى يريد أن يهاجمها ويقف ضد مخططاتها!!.

۞ وعلى ذلك فليس أمامنا من سبيل للمواجهة إلا سبيل رفض قيم العولمة والكوكبية والجات وعصر المعلومات لأنها جميعا كما قلت تصب فى إطار فرض الهيمنة الغربية على شعوب العالم؛ فما المقصود بالعولمة إلا "غربنة" العالم أجمع وجعلهم شعوباً ما سخة لا هوية لها ولا استقلال، فلا هى قد حافظت على أصالتها ودافعت عن قيمها الثقافية وهويتها الحضارية المستقلة وتمسكت بها، ولا هى بقادرة على أن تكون غربية كالغربيين!!.

إن رفض قيم العولمة الغربية ليس مجرد كلاما نقوله وكفى، بل ينبغى أن يتحول إلى واقع يبدو فى مخططاتنا الثقافية والاقتصادية والسياسية .. إلخ. إن قوة أى أمة إنما تنبع من داخلها ومن إعادة البناء الذاتى لثقافتها واقتصادها وليس بالاعتماد على الآخر خاصة إذا كان هذا الآخر هو "الغرب الرأسمالى"؛ فالتاريخ العام للحضارات وللشعوب يؤكد هذا كما سبق وأشرت إلى ذلك.

إن الاعتماد على الغرب لبناء الذات هو محض خرافة. علينا من الآن إذا ما أردنا أن ننجو بأنفسنا قبل فوات الأوان أن نعيد بناء الذات الثقافية باستعادة قيمنا الأصيلة دينية واجتماعية واقتصادية، وإعادة بناء قوتنا الاقتصادية والسياسية بل والعسكرية مستعينين بأمم الشرق الأخرى. فبناء القوة الذاتية يبدأ من بناء القوة العربية الاقتصادية والسياسية والعسكرية المشتركة ويتسع ليشمل بناء القوة الإسلامية المشتركة وهكذا فهذا هو المجال الوحيد الذى ينبغى أن نتحرك فيه قبل أن تبتلعنا عولمة الغرب وآلاتها الجهنمية !.

openkandl.com

(٥)

نحن وعصر المعلومات والإنترنت (*)

(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ١٩٩٧/٧/٢٧م.

obeikandl.com

نحن وعصر المعلومات والانترنت

" معلومات .. انترنت ..

ياتبقى حياتكم زى الزفت "

لا أدرى لماذا يرن هذا الهتاف فى أذناى كثيرا فى الفترة الأخيرة لدرجة جعلتنى أتصور أن ذرات الهواء قد تحولت إلى أشخاص تهتف بهذا الهتاف طوال النهار والليل!! وقد بلغت قوة الهتاف درجة لم أعد قادرا معها إلا على التفكير فى حالنا المتدهورة ونحن بعد لم ندخل عصر المعلومات والانترنت!! ولكم تأملت الأمر مليا: هل نحن حقا جديرون بالدخول فى هذا العصر؟! وهل من الضرورى أن ندخله باعتباره البوابة الملكية لدخول القرن الحادى والعشرين كما يقولون؟!

وكم قرأت عن ملامح هذا العصر الجديد وأدواته التكنولوجية التى تتلخص فى كم هائل من المعلومات تحملها رقائق الكمبيوتر بدلا من التقارير والكتب والملفات.. إلخ وتنساب هذه المعلومات إلى كل من يريدها بمجرد أن يضغط بإصبعه على ذر صغير. وما إن عرفت ذلك حتى قلت فى بلاهة: إذا كان ذلك هو المدخل إلى القرن القادم فما أسهله وما أبسطه إذ أن كل ما نحتاجه هو مجرد أجهزة

obeikandi.com

نستوردها واشتراكات ندفعها ورقائق تحمل المعلومات وما علينا بعد قليل من التدريب على استخدام هذه الاجهزة إلا أن نضغط على ذلك الذر أو ذاك فتنساب أمامنا المعلومات فى سهولة ويسر!.

لكن سرعان ما أعادنى هيراقليطس الفيلسوف اليونانى القديم إلى وعيىَ المفقود حينما أعدت قراءة قوله: "إن المعلومات الكثيرة لاتكفى للفهم"!. وقلت: حقا إن المسألة ليست مجرد معلومات. فكم جامع للمعلومات هو فى حقيقة أمره "كالحمار يحمل أسفاراً" وهو لايدرى شيئا عما يحمل!!.

وحينئذ كان السؤال الذى ألح علىّ: أى معلومات نجمع وبأى طريقة يمكن تحليل وفهم هذه المعلومات للاستفادة منها؟! وهنا أدركتُ كما أتمنى أن يدرك كل من يدعوننا إلى سرعة الدخول فى هذا العصر الجديد، أن المسألة ليست مسألة كثرة معلومات. وإنما مسألة كيف نتلقى هذه المعلومات، وعلى أى محك سيكون هذا التلقى؟ وما الذى يمكن أن نستفيده من هذا السيل المعلوماتى؟!

والأخطر من ذلك أنه لابد أن ينتبه السادة الذين يلحون علينا فى أن نكون معلوماتيين، أنه ينبغى التمييز بين المُنتج والمُستهلك للمعلومات تماما كما فى عالم السلع والصناعات. فهل هى دعوة من جانبهم لنكون مجرد مستهلكين! إذا كان ذلك كذلك فبئس الدعوة

وبئس الداعى! فهو يريد أن يجلعنا "كالحمير نحمل أسفارا" ونحن لم ولن نكون كذلك إن شاء الله.

إن الـــتدفق المعلوماتى حتى الآن هو من جانب الغرب. وهو لايـــتيح لنا منها إلا ما يسمح به وما يريد أن نعرفه، لا ما نريد نحن أن نعـــرف؛ فهـــل يمكنك أن تعرف أسرار صناعة الطائرات أو أى صـــناعة غيـــرها عبر "الانترنت"؟! وهل يمكنك أن تعرف عبره أى سر من أسرار نظرية علمية أو مُخترع مُهم؟!.

إن المـــتاح مـــن المعلومات أيها السادة هى المعلومات عديمة المـــنفعة أو الفـــائدة عـــلى الصعيد الاستراتيجى. إنها مجرد معلومات التســـلية والترفيه ولا أقول معلومات الدعوة إلى الفساد والإفساد!. إنها المعـــلومات الـــتى يمكـــن أن تغرق فيها فتقتل فيك فى معظم الأحيان القـــدرة على الإبداع والابتكار!. ولذلك فإن تلقى المعلومات ينبغى أن يكـــون بقدر وأن يتوقف عند حدود معينة ليتيح الفرد لنفسه التفكير فى هـــذه المعـــلومات، وفى جدواهـــا، وفى كيفية الاستفادة منها، هذا إذا كانت بالفعل هامة ومفيدة!!.

ومـــن جـــانب آخر، فإن السؤال الأكثر إلحاحا: هل يمكن أن نتحول فى هذا المجال المعلوماتى من الاستهلاك إلى الإنتاج؟!.

أعـرف أنـنا نستطيع ذلك فى بعض المجالات مثل مجالات الاقتصـاد والـتجارة والسياحة. وقد بدأنا فعلا فى هذا الطريق. لكن إلى أى مـدى يهـتم الآخـرون بمـا نسجله من معلومات فى هذه المجـالات أوفى غيـرها، وإلى أى مدى يمكن أن تعود علينا بالنفع والفائدة؟!.

إنها تساؤلات ينبغى أن نفكر فيها جيدا. وقبل أن يسارع المتحمسون إلى الصياح والاحتجاج، أسارع أنا قبل أن يضعوننى فى خانة المتخلفين والانهزاميين والرجعيين غير القادرين على الاستفادة من أعظم منجزات العصر، أسارع إلى القول:

انظروا فى مجال واحد مهم من مجالات حياتنا المعاصرة، بل إلى جزئية واحدة من جزئياته؛ انظروا فى نشرة أخبار التاسعة لتجدوا بعض الإجابة على تلك التساؤلات! فنحن لا نزال نذيع أخبار العالم المتقدم والمتخلف بما فيها أخبار الرياضة من واقع ما يأتينا من معلومات عبر الشبكات الإخبارية العالمية؛ فأخبار الدورى الاسكتلندى والبرتغالى وغيره تأتينا ونذيعها فورا، فى الوقت الذى قد لا نهتم فيه بإذاعة نبأ عن مباراة جرت عصر نفس اليوم فى الدورى المصرى بعيدا عن القاهرة!!

إلى هذا الحد أيها السادة بلغت سيطرة التدفق المعلوماتى للآخر على إعلامنا!! فما بالكم بالأفراد والهيئات الأخرى التى لاتملك نفس الإمكانيات والقدرات الهائلة التى يملكها الإعلام عندنا!!. إذن فلنخلع عنا أولا "بردعة الحمار" ولننمى مهارات الفهم والتحليل والنقد والتأويل والمراجعة عند شبابنا من خلال نظام تعليمى متطور قبل أن نقذف بهم فى أتون عصر المعلومات والانترنت والعولمة والكوكبية والما بعد حداثة .. إلخ ..

obeikandl.com

(٦)

التنويريون العرب ورسالتهم الحقيقية(*)

(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ١٦/١/١٩٩٤م.

obeikandi.com

التنويريون العرب
ورسالتهم الحقيقية

يربط الكثيرون خطأ هذه الأيام بين التنوير والعَلْمانية؛ فكل تنويرى ينبغى أن يكون علمانيا بل لابد أن يكون كذلك، وكل علمانى يعد داعية للتنوير!! وفى إطار هذا الخطأ يتجه التنويريون – العلمانيون أو العلمانيون – التنويريون إلى الهجوم المستمر على ما يصفونه بالتيار السلفى الإسلامى الجامد!! فبينما يعتبرون أنفسهم قادة للتنوير ودعاة للتقدم يعتبرون الإسلاميين دعاة الجمود والعودة إلى الوراء!!.

ومن عجب أن هذه النغمة أصبحت هى السائدة الآن فى الكثير من الأجهزة الاعلامية العربية المختلفة دون إدراك لما يترتب عليها من نتائج خطيرة ومؤسفة. ولعل أبسط هذه النتائج هو وقوعنا فى براثن التغريب والتبعية وهذا ما هو حادث الآن بالفعل؛ فلقد دهشت حينما تصفحت العدد الأخير من مجلة النقد الأدبى المصرية "فصول"، وبعض أعداد مجلة "القاهرة" ووجدت أنهما – رغم صدورهما عن واحدة من أعرق وأكبر الأجهزة الثقافية الحكومية فى العالم العربى – أصبحتا بوقا لنشر الفكر والآراء النقدية الغربية سواء بأقلام الكتاب الغربيين أنفسهم أو بأقلام الكتاب العرب الذين يتباهون بنقل هذه الأفكار والآراء الغربية بحذافيرها، وكأنه لم يعد يكفينا ما نحن فيه من سيطرة غربية على العقل العربى عبر

أجهزة التليفزيون والإذاعة، وعبر نظام البعثات والمراكز الثقافية المنتشرة فى أرجاء العالم العربى، وعبر الأجهزة الاستشارية المختلفة، فبادرنا بتسليم مجلاتنا الثقافية أيضا فأفردنا صفحاتها للمزيد من هذه الهيمنة الفكرية والنقدية للغربيين!!.

إن هذه المجلات الثقافية العربية والتى تصدرها المؤسسات والهيئات العربية سواء كانت حكومية أم شعبية قد أسست لنشر الوعى وبث الفكر العربى أساسا، ولم تتفق الشعوب والحكومات العربية عليها لتصبح أداة لنشر الفكر والآراء الغربية وتدشينا لهيمنتها وفرض سيطرتها على عقول شباب المفكرين والأدباء العرب!!

إن التنوير والعلمانية يا من توحدون بينهما من أصلين مختلفين وإن ارتبطا معا فى فترة من فترات النهضة الغربية الحديثة؛ فقد ظهرت العلمانية – بفتح العين وتشديد اللام – فى الغرب كدعوة للفصل بين الدين وبين شئون الحياة خاصة الشئون السياسية والعلمية على يد مجموعة من الفلاسفة والمفكرين من أمثال دانتى ومكيافيللى وبرونو منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وكان لظهور العلمانية فى الغرب العديد من الأسباب التى يعرفها الكثيرون وأهمها هيمنة الكنيسة الغربية فى ذلك الوقت على كل شئون الحياة فى الغرب ووقوفها عقبة أمام التطور والتجديد فى كافة مجالات العلم والفلسفة والسياسة .. إلخ.

فكان لابد من أن يكسر المفكر والعالم الغربى طوق الحصار المفروض عليه وأن يتخلص من الجمود – الذى ظل لأكثر من عشرة قرون كاملة – عبر هذه الدعوة إلى الفصل بين الدين وبين كافة الشئون الدنيوية؛ وقد استند المفكرون الغربيون فى هذا على القول الدينى المأثور "أعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله"!.

وكلنا يعلم أن هذه الدعوة قد آتت ثمارها فى الغرب، وبدأ التطور الفكرى والعلمى وبدأت النهضة الغربية الحديثة على يد أعلامها المشاهير من أمثال بيكون وديكارت فى الفلسفة وكبلر ونيوتن فى العلوم، وهكذا انساب تيار التجديد الغربى فى مجالات الفلسفة والعلم أولا ثم أعقبه التطور والتجديد السياسى الذى كان داعيته جون لوك مؤسس الفلسفة الديمقراطية الليبرالية، وقد استند المفكرون الذين لقبوا بالتنويريين من أمثال فولتير وديدرو وروسو ومونتسكيو على فلسفة ديكارت العقلية، وفلسفة بيكون وهوبز التجريبية، وعلى آراء لوك الليبرالية، ودعوا إليها وطوروا فيها وأضافوا إليها فكانت الحركة التنويرية الداعية إلى الحرية والمساواة والإخاء فى فرنسا ومنها انتشرت فى أرجاء أوربا ثم أمريكا.

ومن هنا ارتبطت الحركة التنويرية بالدعوة العلّمانية الداعية إلى الفصل بين الدين وبين كافة الشئون الدنيوية فى الغرب. ورغم

ما حققه هذا الارتباط التاريخى بين العلمانية والتنوير من تطور فى الغرب استمر حتى منتصف القرن الماضى أو حتى آواخره، إلا أن النتائج السلبية لهذا التطور الذى ركز على اشباع الجوانب المادية للإنسان وأهمل الجوانب الروحية بدأت تظهر بقوة خلال القرن العشرين. وهاهو الغرب الآن يرزح تحت أعباء المادية المفرطة فى كل نواحى الحياة، وهاهم فلاسفته من أمثال اشبنجلر وتوينبى واشفيتسر يعودون إلى المناداة بضرورة إعادة التوازن بين التطور المادى للإنسان وبين تنمية الجوانب الروحية والأخلاقية فيه !! وإلا فإن انهيار الحضارة الغربية قادم لا محالة!.

وهكذا فإن التنوير الغربى فى القرن العشرين لم يعد يستند على الأفكار العلّمانية التى فعلت فعلها فى القرون السابقة وانتهت، إن التنوير الغربى الآن – وعلى التنويريين العلمانيين العرب أن يتحققوا من ذلك – بدأ يتجه نحو إبراز دور الفكر الدينى والأخلاقى فى حياة الإنسان، وأصبح تنمية الحس الدينى والروحى أساساً من أسس التربية الحديثة لدى التنويريين الغربيين المعاصرين.

وليس ببعيد عن هذا الاتجاه المعاصر فى الغرب ما نراه من اتجاه المفكرين الغربيين المعاصرين إلى الدعوة إلى "الحوار بين الحضارات" وبالذات إلى الحوار بين الحضارة الغربية وحضارات

الشرق الروحية، وهم يستهدفون من ذلك افراغ الحضارات الأخرى من مضمونها الروحى والاستفادة من ذلك فى تغذية الحضارة الغربية التى أصبحت جسدا بلا روح، وقد نجحوا فى فعل ذلك من قبل مع الاشتراكية الماركسية التى أفرغوها من مضمونها الاجتماعى وغذوا به شريان الرأسمالية، فبقت الرأسمالية واستمرت بينما انهارت الماركسية لوقوف أصحابها عند مبادئها الجامدة دون أن يسعوا إلى تجديدها وتطويرها!!

وليس ببعيد عن ذلك أيضا ما نراه من اتجاه بعض المفكرين الغربيين الآن إلى الإيمان بالاسلام كدين أسمى لأنهم وجدوا أنه الدين الوحيد الذى يوازن بين مطالب الإنسان المادية وبين مطالبه الروحية، ووجدوا أنه الدين الذى يحث الإنسان على ضرورة البحث والتمحيص فى جنبات الكون بغرض المعرفة والاستفادة من إمكانياته المادية بدون اعتداء صارخ على الطبيعة وكائناتها الأخرى، ووجدوا أنه الدين الذى فتح الآفاق أمام العقل الإنسانى ليكون أساسا للإيمان وأساسا للعلم فى آن واحد.

ومن المؤسف حقا أنه فى الوقت الذى أدرك فيه المفكرون الغربيون ذلك فآمنوا بالإسلام، نجد أن التنويريين العرب يشنون حملة علمانية ضد الإسلام والإسلاميين ويدعون أنهم إنما يحاربون فقط بعض الإسلاميين المتطرفين وأفكارهم الهدامة!!.

والحق أن هذا الكلام ظاهره حق وباطنه باطل؛ لأن ما نراه فيما يكتبون إنما هو اتجاه صارخ نحو تغريب كل شيء، ودعوة إلى محاذاة النموذج الغربى فى كل شيء! إن أجهزة الدعاية الغربية التى تتناقل أبواقها هذه الحملات لا تفرق بين الاسلام وبين الاسلاميين المتطرفين، بل هما فى نظرها شيء واحد!! ولذلك فإن المتلقى عن هذه الأجهزة ينظر إلى الاسلام وإلى المسلمين ككل على أنهم دعاة للتخلف والجمود.

إن ما أتمناه من التنويريين العرب هو أن يتوقفوا عما يكتبونه الآن ليعيشوا لحظة صدق مع النفس. وليتأملوا معى هذه التساؤلات: هل يحق لمفكر عربى أن يكون أداة لنشر بضاعة غربية ثبت فسادها وفشلها؟! هل يحق لمفكر عربى أن يكرس التبعية والتغريب فى الوقت الذى ينبغى أن يكون فيه رائدنا فى الخروج من أسرهما؟! وهل يجوز لمفكر عربى مخلص - وتحت تأثير بعض ظواهر الانحراف الفكرى أو الفهم الخاطئ لبعض شباب المسلمين - أن يكون أداة تشارك فى الحملة على الإسلام وعلى كافة المسلمين ونحن فى عصر اشتدت فيه هذه الحملة ولم يعد أمام الغرب من عدو يحاربونه سوى الإسلام والمسلمين؟!

وأخيرا، هل يجدر بمفكر عربى مخلص أن يكتب ويردد أفكارا غربية عن الإسلام دون أن يضطلع هو بدور مستقل فى

دراسته دراسة متأنية واعية وبيان جوهره الحقيقى كدين يدعو للعقل وللعلم وللحرية، كدين يكرم إنسانية الإنسان ويقدس حرماته ويرعى حرياته؟!

إن التنوير الحقيقى الذى ينبغى أن نتبناه وندعوا إليه هذه الأيام هو التنوير المستند على بيان الإسلام فى وجهه وصورته الحقيقية أمام دعاة تشويهه وتشويه من يؤمنون به!!

إن التنوير الحقيقى الذى ينبغى أن نكون دعاته لا يكون إلا بعد أن يتخلص دعاة التنوير العَلّمانى من تبعيتهم التى طالت والتى طالما انتظرنا أن يتخلصوا منها، وأن يفتحوا عقولهم ويفسحوا صدورهم وصفحات مجلاتهم وصحفهم لكتاب جدد ولآراء جديدة أصيلة، وأن يسعوا إلى اكتشاف المواهب الأدبية والنقدية والفكرية العربية الواعدة بمسقبل أفضل يكون أكثر أصالة، لا أن يسدوا أمامها المنافذ فى الوقت الذى يفتحوها على مصراعيها أمام الكتابات والآراء الغربية!!.

والحق أن أخشى ما أخشاه الآن وبعد أن يقرأوا تلك السطور أن تتهافت الأقلام وتتعالى الأصوات متهمة صاحبها بأنه ضد التنوير - كما يفهمونه - وبأنه من دعاة التخلف والعودة إلى الوراء، وهذه مقولة طالما رددوها وسجنوا فيها كل من يخالفهم فى الرأى!

والواقع أننى وغيرى من دارسى الفلسفة الغربية وعشاقها أبعد ما نكون عن ذلك، وكل ما هنالك أننى أرى وفى هذا الوقت بالذات أن على المفكر العربى أن يكون مخلصا وموضوعيا فى تناول قضايا وطنه، وألا يكون تحت أى ظرف خاضعا لأى سلطة سوى سلطة عقله الواعى والاخلاص لدينه ولأمته.

وليس معنى ذلك أننى أدعو إلى الانغلاق أو الانكفاء على الذات أو أننى أدعو إلى "قطيعة معرفية" مع الغرب، لا وألف لا. إن ما يعنينى هنا هو أن نكون أكثر التزاما بالتعبير عن قضايانا، وأن ندافع فيما نكتب عن مصالحنا وهويتنا الحضارية، وألا تعمينا الهيمنة الإعلامية الغربية عن إدراك جوهر الصراع الحضارى القائم والذى يديره الغربيون بنجاح وبدهاء شديدين وفق مصالحهم دون أن يضعوا فى الاعتبار أى مصالح للآخرين.

إننا كمفكرين دائما ما نعيب على رجال السياسة والاقتصاد تبعيتهم وعدم قدرتهم على بناء الذات المستقلة سواء فى إطار سوق عربية أو إسلامية مشتركة، أو فى إطار صورة من صور الوحدة السياسية!!، بينما ينبغى أن ندرك نحن أولا أن بناء الذات المستقلة سياسيا أو اقتصاديا إنما يبدأ من قدرتنا نحن على بلورة عناصر تلك الذات على الصعيد الفكرى أولا بالكشف عن عناصر هويتنا

الحضارية المتفردة بمختلف تجلياتها الدينية والفلسفية والعلمية والاجتماعية والأدبية والفنية.. إلخ، وبعد ذلك يأتى دون شك دور الساسة ورجال الاقتصاد!!

إننى أعتقد صادقا أن دور المفكرين العرب وخاصة الكبار منهم؛ أولئك الذين يمتلكون القدرة على التأثير من خلال سيطرتهم على أدوات التأثير – من مجلات وصحف وإذاعة وتليفزيون .. إلخ – يفوق فى أهميته فى الوقت الحاضر دور الساسة ورجال الاقتصاد؛ لأن السياسى والاقتصادى مقيد فى تبعيته بشبكة لا يستطيع الفكاك منها بسهولة، بينما المفكر والأديب والفنان يستطيع التخلص من التبعية إذا ما أحسن التأمل وأمعن الفكر وأخلص النية فى التعبير عن قضايا وطنه ودينه مراعيا مصالح أمته العليا واستقلاله الحضارى.

obeikandl.com

(٧)

الحداثيون العرب .. والعيش بين الكلمات (*)

(*) نشرت بجريدة "البيان" اليومية الإماراتية التي تصدر عن إمارة دبى بدولة الإمارات العربية المتحدة فى ١٩٩٣/١١/١٩م.

obeikandl.com

"الحداثيون" العرب والعيش بين "الكلمات"

لا يزال تيار "الحداثة" فى الأدب العربى المعاصر هو التيار الأعلى صوتا والأكثر ضجيجا بين "النخبة" المثقفة فى العالم العربى.

ورغم ذلك الانتشار وهذا الضجيج، ورغم أننى من قراء الأدب العربى قديمه وحديثه، إلا أننى مازلت لا أفهم معظم ما يكتبه شعراء "الحداثة" العرب، وإن سئلت بعد قراءتى لأى قصيدة من قصائد هؤلاء الشعراء - الذين يمثلون أبناء جيلى - لقلت نفس ماقاله سقراط فيلسوف اليونان الشهير حينما سُئل عن رأيه فيما كتبه هيراقليطس - وكان مشهورا بأنه الفيلسوف الغامض الملغز - "إن ما فهمته يبدو عظيما وما لم أفهمه يبدو أعظم"!!

ولذلك فأنا فى حيرة شديدة من أمرى؛ هل أنا عاجز - رغم محاولاتى الجادة - عن أن أفهم، بعد هذا العمر الطويل فى القراءة والفهم والتحليل ومعرفة أسرار لغتنا العربية، شعراء عصرى، والمفروض أن أكون الأقدر على فهمهم ومتابعة ما ينتجون لأنهم إنما يعبرون عنى وعن مشاكلى وهمومى وآلامى وأفراحى.. إلخ.؟! أم أنهم هم العاجزون عن أن يصلوا إلىّ وفضلوا على ذلك العيش وسط

كلمات متراصة هى أولا وأخيرا عاجزة عن أن تصل إلى متلقيها اللهم إلا إن كان المتلقى هو نفسه الكاتب؟!!

والأمر الذى يحيرنى أكثر هو أننى أجدهم وفى كل مناسبة يقولون: أنهم شعراء ثوريون، وحاولت أن أفهم معنى هذه الثورية؛ أهى ثورية التمرد على الشكل القديم فى الشعر! قد يكون ذلك! وإن كان ذلك هو معنى الثورية فأنا معهم وقد تفهمت ذلك منذ بداية السبعينات وعبرت عنه فى مجلة "الجديد" التى كانت تتبنى ذلك الاتجاه الحديث فى الشعر! لكن لا أتذكر فى ذلك الوقت أنه كانت هناك كتابات "حداثية" أو شيء مما يسمونه الآن "الحداثة"!!

لكننى شيئا فشيئا اكتشفت أنهم يقصدون بالثورية معنى آخر؛ لأنهم يرون "أن الشعر الثورى لا يكون فعالا إلا فى جمهور يمارس العمل الثورى"، وهذا ما قاله زعيمهم أدونيس فى كتابه "زمن الشعر"؛ فالثورية عندهم إذن هى ثورية التأثير فى الجمهور!!

وحينما اكتشفت ذلك الهدف الذى يسعون إليه، وتلك الثورية التى يريدونها لم أتمالك نفسى من الدهشة والعجب ووجدتنى أضرب كفا بكف!! إذ كيف يتصور هؤلاء أن شعرهم هذا يمكن أن يكون له أى تأثير ثورى على الجمهور!! وكيف يتصورون أنهم بهذا الشعر الذى تكمن "حداثته" فى التقوقع داخل الكلمات يمكن أن يكون له تأثير جماهيرى من أى نوع!!

إن هذا الشعر "الحداثى" الذى ينتجونه لا يعبر إلا عن ترهات فى نفس صاحبه وفى إطار عالم لغوى خاص يصطنعه ويعيش فيه!! إنه "الشعر" الذى لا يفهمه ولا يتفاعل معه سوى من ينتجونه، فكيف تجرأوا على وصفه بالثورية المؤثرة فى "الجماهير التى تمارس العمل الثورى"!!

على كل حال، لقد خرجت مؤخرا من تلك الحيرة وتلك التساؤلات التى أرقتنى منذ زمن، وذلك حينما قرأت للدكتور شكرى عياد كتابه الأخير "المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين"، ووجدته - وهو الناقد الكبير وصاحب الدراسات الأدبية الكثيرة والعميقة - يعبر عما يحيرنى ويشاركنى فيه وهو يتساءل متعجبا فى إطار تقييمه لتيار "الحداثة" العربية:

"هل نقول إن الحداثة العربية انطوت على شىء من خداع النفس؟ هل نقول إن هذه الحداثة إذ تصف نفسها بالثورية لا تريد فى الحقيقة إلا أن تتخذ واجهة مناسبة أمام النظم "الثورية " فى العالم العربى؟ هل نقول إن شعراء الحداثة العربية وهم شعراء النخبة إنما يقدمون زاداً كلامياً لهذه النخبة تغذى به سخطها على واقع اجتماعى تعلم - رغم تمتعها فيه - أنه فاسد ومرشح للانهيار؟ هل نقول - أكثر من هذا - إن دعوى " عربية" الحداثة - هذه الحداثة - دعوى

زائفة لأنها لا تزيد على أن تنقل إلينا مفاهيم الحداثة الغربية، بل مفاهيم "حداثة" معينة، حداثة الغريب واللافت والمثير بعد أن انقضى عهد رواد الحداثة الحقيقيين أمثال بودلير ورامبو وازرباوند و د. هـ. لورنس وو . ب بيتس وجيمس جويس و ت . س. اليوت، الذين شككوا أبناء الحضارة الغربية فى قيم هذه الحضارة، وهى نفسها التى يبشر بها حداثيونا هؤلاء باسم الحضارة الإنسانية، وهى بالفعل حضارة إنسانية لأنها جعلت الإنسان مصدر القيم كلها، فانتهت بأن أصبحت الآلة التى اخترعها الإنسان لتهيئ له مزيداً من القوة أو مزيداً من السعادة، سببا لشكائه وربما لدماره؟!

و "النخبة" عندنا - حتى فى مجال الثقافة - تقنع عادة بـ "آخر ما أنتجته المصانع الأوربية أو الأمريكية" وقد تضع فى أعز مكان من "الصالون" ما يلقيه الغربيون على جانب الطريق". (ص ٦٨ - ٦٩).

صدقت يا ناقدنا الكبير فى كل تساؤل وفى كل كلمة من هذه الكلمات القوية المعبرة، والناقد الكبير لا يكون كبيرا إلا حينما يواجه القضايا بمثل هذا العمق وذلك الشمول.

ولم يبق إلا أن أدعو صادقا كل "الحداثيين" العرب أن يقرأوا هذا الكلام السابق جيدا لعلهم يقتنعون بأن الخروج من "دائرة

الكلمات" أصبح أمرا ضروريا إذا ما أرادوا أن يعبروا عنا حقا!! ولعلهم يقتنعون أيضا بأن "الحداثة" الحقيقية فى الشعر العربى المعاصر إنما تبدأ حينما يعبر الشاعر العربى عن الإنسان العربى وقضاياه الحقيقية بلغة يفهمها هذا الانسان ويتفاعل معها لا بلغة مستغلقة حتى على من يستخدمونها!!

إن "اللغة" فى كل فنون الكلام كما فى الشعر هى أداة لتوصيل المعانى والأفكار وليست هى "المعانى" أو "الأفكار" ذاتها!

وإذا ما عجز الشاعر العربى عن استخدام أداته الفنية – أى اللغة – فى توصيل ما يريده من أفكار ومعان إلى المتلقى، فليس شاعرا وليس عربيا كذلك!!.

obeikandl.com